الفلسفة والتحول الامبريالي في الوطن العربي

قراءة في فكر ادوارد سعيد.

من النص الفلسفي إلى الواقع التاريخي.

"إن طرافة إ. سعيد هو أنه ربما كان أول مفكر إمبراطوري". فتحي المسكيني.

"لقد كان سعيد دائما شبيها بحصان طروادة في مدينة ما بعد بنيوية وما بعد حداثية" وليم هارت

الأستاذ : ربوح البشير*

*****

فرش إشكالي:

لم يعد خافيا على أحد في هذا الأفق الزمني من تاريخنا العربي المعاصر، وجود تلازم حتمي بين التحولات التي حدثت وما زالت دوما على قيد التكون والإنشاء، في انتظار ما هو أكثر عسرا وصعوبة، وعلاقة التحول بالمنتظر الفلسفي التحليلي، تمسكاً بمبدأ تنظيري يصور التاريخ على أنه منتوج بشري خالص:"من إنتاج الكائنات البشرية في صميم الزمان وفي قلب المجتمع، وهي نفسها الأدوات التي تحرك تاريخها الفعلي".[1] وكل تصور يسعى إلى إخراج التاريخ من تاريخيته وإنسانيته ووضعه

* – شعبة الفلسفة، قسم العلوم الإنسانية، جامعة باتنة.Kamel.rebouh67@yahoo.fr

[1] ادوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوض، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2000، ص 185.

في نص تمجيدي متعال هو مجرد مسعى معاد للتاريخ، الذي يعتبر:"النصية بمثابة النقيض الحقيقي لما يمكن دعوته بالتاريخ"[1].

في صُلب هذا التمشي الفلسفي يتنزل الخطاب الفلسفي لمفكرنا ادوارد سيعد، الذي يتعاطى مع التاريخ باعتباره صنعة بشرية تخرج من محاضن إنسانية تتساكن في جملتها داخل جوف ذاتنا المنتظمة في مسار حركي لا يستقر على وضع، وكأن الريح تحته، بحيث ينظر إلى التاريخ على أنه مشهد من التحولات البشرية من جهة ارتباطها بالمتغيرات المتعددة، غير أنها تتعالق رأساً بمستوى آخر من القراءة المبدعة لمفكرنا، فهو يجتهد في استشراف هذه المنعطفات في نصوص الفلسفة التاريخية بدورها، اعتماداً على أن الواقع التاريخي من صنع النص الفلسفي الذي بلوره البشر في زمانهم ومكانهم وبعقولهم اليقظة، هذا الجدل المتحير بين النص والواقع، ثم بين الواقع والنص كرة أخرى، وبصورة راهنة وملحة، نستطيع أن نمسك على الأقل وفي مبتدأ القول بالخيط الناظم والمتحكم إلى حد كبير في مسلك قراءة ادوارد سعيد للتحول الامبريالي الذي حدث في الرؤية الغربية للآخر بمختلف تشكلاته الهووية.

نستطيع بدءاً، وبرفقة الرؤية الفلسفية الناقدة التي انخرط فيها مفكرنا، أن نلتفت إلى ما قدمه إ. سعيد من تصور مبدع وطريف لمعنى الاستشراق كونه المحضن الأصلي الذي تشكلت فيه الرؤية الامبريالية، ومفاد ذلك أن الاستشراق لم يعد وفق التوصيف الكلاسيكي، دراسة ضمن دراسات عديدة تنشغل بالشرق وبنصوصه المتعددة، أي أننا لا نتحدث عن استشراق قطاعي، أدبي، ديني، تاريخي، أنثروبولوجي، وغيرها من الأبحاث الاستشراقية التي أغنت المكتبة العربية، بل نتحدث هنا والآن، أي من جهة الزمان الخطابي والفضاء الامبريالي، على مستوى جديد من التحليل، يتعاطى مع الاستشراق بحسبانه **خطاباً**.

1ادوارد سعيد، المصدر نفسه، ص 6.

ومنه نستطيع أن نتحدث عن:"خطاب ما بعد كولونيالي بالمعنى الذي يطرحه فوكو أو سعيد، يعني استحضار طرق معينة للتفكير حول اللغة وحول الحقيقة وحول السلطة وحول العلاقات المتبادلة بين هذه الثلاثية المتقاطعة. أما الحقيقة، فهي ما يمكن اعتباره حقيقيا داخل نسق من القواعد لخطاب بعينه، والسلطة هي التي تقوم بإلحاق الحقيقة وتحديدها وإثباتها. ولا توجد الحقيقة أبداً خارج السلطة، أو تُحرم منها، **وإنتاج الحقيقة هو وظيفة القوة*** و"لا يمكننا ممارسة السلطة إلا من خلال إنتاج الحقيقة"، كما طرحها فوكو"[1].

في هذا الأفق من القراءة، نمشي قليلا صوب الحديث عن نُقلة انبثقت في الدراسات الاستشراقية، باعتبارها عهدا ابستيمولوجياً على درجة عالية من الحَدثية التاريخية، التي شكلت منعطفاً أنطولوجيا في مسطح فهوم الآخر عنا، وهي اجتهاد إ. سعيد في التعامل مع الاستشراق على أنه **خطاب، بالمعنى الفوكوي**، ومنه اكتشف أن التحول الامبريالي، في الرؤية الغربية تشكلت في النص الفلسفي قبل أن تطفو على سطح الممارسة الاستعمارية، فهي ثاوية في متنه وفي أحكامه.

وعلى أساس هذا التمشي، نتساءل:

كيف أمكن لسعيد أن يرصد هذا التحول الفكري الصامت والثاوي في متن النص الغربي، قبل أن يصبح واقعة منتصبة في التاريخ؟، هل نستطيع أن نطور مفردات سعيد التحليلية ونبني على أساسها خطابا ذاتيا يسعفنا في فهم التحولات الدراماتيكية التي تعصف بنا؟ على أي وجه نعيد ترهين وتطوير هذا الخطاب الاستشراقي الجديد؟.

---

[1] بيل أشكروفت، غاريتغريفيث، هيلين تيفن، الرد بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، تر:شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة،لبنان، ط1، 2006،ص 275.

* التشديد من عندنا.

المقام التحليلي:

1. الإمبريالية والنص الفلسفي: مسار مركب.

يبدأ إ. سعيد قراءته للتحول الامبريالي من مسلمة معرفية مفادها أن النزعة التسلطية صوب الآخر، كامنة في هذا الرؤية منذ زمن تاريخي لا يستهان به، بحيث يمكننا أن نرصد هكذا تحول في المشروع الذي قدمه الفيلسوف الألماني "**ليبنتز**" لحكام أوربا باستعمار **مصر**، بحيث:"أخذ على عاتقه مهمة إقناع لويس الرابع عشر بضرورة التخلي عن استعمار هولندا وتوجيه مآربه التوسعية نحو مصر "لسهولة الاستحواذ عليها"، ما يُمَكنه من التخلص من السلطة العثمانية. وهو يقول عن مصر:"إن مصر قد لعبت دوراً مهما في [تحديد] مصالح الإنسانية"، لذلك من المستحسن استعمارها "لأن حربا أوروبية ستكون من قبيل التهور". فمصر بلد من السهل جداً استعماره، وهو يزخر بمخزونات تكاد لا تحصى. يضاف إلى ذلك أن استعمار مصر سيتيح لفرنسا توسعية مفيدة جدا بحيث يصبح بإمكانها **التحكم** في طريق الشرق الأقصى، علاوة على هذا التوسع الاقتصادي، يمثل احتلال مصر **إمكانية سانحة لتحقيق وحدة أوروبا**".[1]

ومنه تكون الرؤية الغربية نابعة من تصور قد أضحى مع مرور الوقت الامبريالي، مفهوماً مستقراً في الفضاء الاستشراقي الذي اكتسب صفة الحقيقة الناجزة والنهائية، والتي تماهت مع منظور نيتشوي سابق لأوانه الفلسفي، يمجد القوة ويرغب في التسلط على الآخر، تجلى في مشروع نابليون التوسعي، الذي:"اكتسب طابع الحقيقة الواقعة في ذهنه، ثم في استعداداته لفتحها فيما بعد، من خلال خبرات تنتمي إلى مجال الأفكار والأساطير المأخوذة من النصوص، لا من الواقع التجريبي".[2]

---

[1]أنظر مقدمة، مقالة في الميتافيزيقا، ترجمة وتقديم وتعليق، الطاهر بن قيزة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2006، ص ص 52 53.

[2]ادوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، تر، محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2006 ص، ص 152،153.

يبدو هنا هذا القول خطيرا بالنظر إلى ما أحدثه من رجة في ما استقر لدى الفهومالسابقة، والتي تنظر إلى النص البشري على أنه نتاج الواقع، بمعنى أن إ.سعيد يُدشن مسعى معاكس يتوجه جهة التعامل من الواقع على أنه منتوج نصي بامتياز، بحيث لم تكتف النصوص المتعددة بـ:"خلق المعرفة بل تتجاوزها إلى الواقع نفسه، وهو ما يبدو أنها تصفه فحسب، وبمرور الزمن تؤدي هذه المعرفة على إرساء تقاليد معينة، أو ما يسميه ميشال فوكو"خطاباً" معينا، ويصير وجوده المادي المسؤول الحقيقي عن النصوص التي أدى إلى كتابتها".[1]وآلية ذلك عنده تبدأ من التركيز على تفصيل معين يتحرك أولاً في فضاء العبارات التي تتكرر في الخطاب الاستشراقي من قبيل "الخيمة والقبيلة"، " محمد دجال"، ويتحول بعد ذلك إلى تعميم سافر، يجمع في جوفه كل الرؤى الغربية للآخر، وذلك بتمثيله في صورة الآخر:"الكسول والأكزوتيكي، والمتخلف والمترهل، بما يستدعي تدخل الغرب، وفي هذا الصدد أبرز سعيد العلاقة الوثيقة بين الرواية الغربية عن الشرق وبين مصالح الكولينيالية وحاجاتها ومطالبها"،[2] ثم إلى قانون عام وشامل وصادق، يجد له حيزا أنطولوجيا ومعرفياً في النص الخطابي الاستشراقي.

إن الانتقال من الواقع إلى النص، وبعد ذلك النزول من النص إلى الواقع، هي آلية التحرك الفلسفي عند ادوارد سعيد، احتكاماً إلى المسعى الفوكوي، وإلى المنحى التفكيكي كذلك، بالرغم من صراعهما الأبدي إلا أنهما يحتكمان إلى مبدأ أساسي في الرؤية النصية وهي أن:"ليس ثمة اختلاف بين العالم والنص، وأن العالم كان قد بني نصياً"،[3] إذ:"لا يمكن فهم الاستشراق دون مقولة الخطاب ودون الانضباط المنهجي بين ممارسة السلطة وإنتاج أشكال العلاقة التي تمثلها".[4] وبهذا يعمل الخطاب على صناعة مفرداته الخاصة به،

---

[1] إ.سعيد، الاستشراق، ص 171.

[2] فاتنة الدجاني، ادوارد سعيد منظورا إليه من فلسطين ومن المجال الأكاديمي، ضمن كتاب جماعي ، ادوارد سعيد طائر القدس المهاجر، إعداد وتوثيق : مازن يوسف صباغ، ط1 2006، ص 295.

[3] بيل اشكروفت، بال أهولو أليا،ادوارد سعيد/ مفارقة هوية،تر: سهيل نجم، مراجعة، د. حيدر سعد، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط 1، 2002/2000/ ص 30.

[4] وليم هارت، ادوارد سعيد والمؤثرات الدينية، ص 109.

بغض النظر عن مدى صلوحيتها الواقعية، ومن بينها مفردة "الشرق"، التي اقتبسها سعيد من رواية دزرائيلي"**تانكرد**"*، بحيث يغدو:"الشرق صنعة وكان لهذا الاقتباس صدى مؤثر في نفس ادوارد سعيد وكان محور تفكيكه لخطاب الاستشراق، فكون الشرق صنعة غربية فهذا يعني إبادة كثير من المحددات التاريخية والجغرافية والثقافية والعقلية والاجتماعية للشرق، وقد وضع ادوارد سعيد مفهوم الاستشراق جنبا إلى جنب مع مجموعة من المفاهيم كالمعرفة والثورة والخطاب". [1]

يقودنا هذا الاتجاه النصي لإدوارد سعيد، إلى فكرة طريفة مفادها مسرحة الشرقي من خلال تمثيله نصياً، فـ:"بينما تقترح فكرة الاستشراق بوصفها حقلا تعليميا فضاءً مغلقاً، فإن فكرة التمثيل هي فكرة مسرحية: الشرق هو الخشبة التي يحجز فيها كل الشرق".[2] إن المسألة هنا تتعلق باختراع هووي:"تريده ذات ما، ولذلك هو لا يعدو أن يكون عندها "تمثيلا" له بوصفه "موضوعا" تنشئه بنفسها، ضمن "تجربة" تاريخية خاصة بها، ومن ثم هي تستعمله لـ"تعريف" نفسها بوصفه ما ليس هي، فينحط عندئذ من "كائن" فعلي إلى "صورة" تفتقد إلى أي استقلال "فكري" أو"شخصي"، لأنها لا تمتلك أي دور وجودي بل فقط دورا أداتياً لشيء "مقابل" يساعد الذات على تمييز هويتها".[3]

كل ذلك يسوغ لرؤية امبريالية خالصة، تحوز على منظومة فكرية تنمح لنفسها شرعية التسلط على الآخر، وبالتالي استغلال جميع المعارف البشرية التي أنتجها الغرب،

---

*رواية "تانكرد أو الصليبية الجديدة"كتبها بنيامين دزرائيلي، والتي حاول فيها التوفيق فيها بين نزعتيه الرئيسيتين: نزعة تمسكه بجذوره اليهودية من جهة ومطامعه الإمبريالية البريطانية من جهة أخرى، إذ دارت هذه الرواية حول الحلف بين الصهاينة الراغبين في العودة إلى فلسطين وبين بريطانيا الاستعمارية الراغبة في سيطرتها على تلك المنطقة الهامة من العالم.

[1] ناظم عودة، موت ادوارد سعيد، المريض الفلسطيني في مستشفى الآخرين، ضمن كتاب جماعي، طائر القدس المهاجر ،ص 478.

[2] بيل اشكروفت، بال أهولو أليا،ادوارد سعيد/ مفارقة هوية، ص 84.

[3] فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، في تنوير الإنسان الأخير،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1 2005، ص 126.

من فلسفة وأدب وسياسة واجتماع، في تفعيل الخطاب الاستشرافي وتكريس رؤيته للشرق المتخيل، فانساق هذا الجمع المعرفي سائراً في خدمة المنزع الامبريالي، لذلك تلون بألوان:"الفلسفة الوضعية، والطوباوية، والتاريخية، والداروينية، والعنصرية، والفرويدية، والماركسية، والشبنجلرية".[1] وحتى السرديات الكبرى، وفق التوصيف البليغ لفرانسوا ليوتار، لم تنجوا بدورها من هذا المسعى المتعالي.

ومنه، غدت الامبريالية مفردة تفسيرية على درجة عالية من التحليل المعرفي للتحول التاريخي الغربي والشرقي معاً، فها هو المفكر العربي عبد الوهاب المسيري يبني رؤيته للتحول من العلمانية الجزئية "المادية الصلبة" إلى العلمانية الشاملة "المادية السائلة" في صورتها النيتشوية، على مفردة الامبريالية، بحسبانها:"جوهر الرؤية الغربية الحديثة(العلمانية الشاملة) للعالم"،[2] وأن ما حدث في الغرب لا يعد في نظرة تراكماً رأسمالياً خالصاً بل هو تراكم امبريالي و:"يكفي أن نعرف أن ما نهبته إنجلترة من الهند يزيد على ما أنتجته خلال عصر الثورة الصناعية، أي إن نجاح المجتمع الانجليزي ومشروعه التحديثي لا يمكن رؤيته بمعزل عن التراكم الاستعماري".[3] وبتعبير المسيري الدقيق "التراكم الامبريالي".

عندئذ، تنتقل الامبريالية إلى مستوى التطبيق العملي، وتصبح ممارسة استعمارية، فهناك فرق بينهما إذ تعني الامبريالية جملة:"وجهات النظر التي يملكها مركز حواضري مسيطر يحكم بقعة من الأرض قصية، أما الاستعمار الذي هو دائما تقريبا من عقابيل الامبريالية، فهو زرع مستوطنات في بقاع الأرض".[4] غير أن علاقتهما ليست بالضرورة تلازمية، لأن انحسار المد الاستعماري بتعلة الثورات التحررية، لا يؤدي إلى انحسار المنزع الامبريالي، ففي وقتنا الراهن:"يكاد يكون الاستعمار المباشر قد انتهى، لكن

---

[1] ادوارد سعيد، الاستشراق، ص 101.

[2] المسيري، حوارات، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر،ط 2، دمشق، 2010، ص 289.

[3] المسيري، حوارات، ص 290.

[4] ادوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، تر: كمال أبو الديب، دار الآداب،لبنان، ط3 2004، ص 80.

الامبريالية، كما سنرى، تستمر حيث كانت موجودة دائماً، في مناخ ثقافي عام، وفي ممارسات سياسية وعقائدية واقتصادية معينة أيضاً".[1]

أي أن الاستعمار مجرد ظاهرة عابرة في تاريخ الغرب، أما النزعة الامبريالية فهي تيمة قارة في متن الرؤية الغربية، تدل على أن الفكر الغربي غير قابل للتفكيك النهائي بمنظور جاك دريدا. فهناك تخوم معرفية تقف عندها الثقافة الغربية، ومواصفات تنماز بها عن باقي الثقافات الإنسانية، وخاصة في سردياتها الكبرى، التي:"تنطوي على نظرة "تراتبية" تجاه الشعوب والمجتمعات، ترتبها حسب "الأفضل فالأفضل"، وهذه عنصرية أنتربولوجية**لامناص منها***، وذلك كما كان واضحاً في مجال استعمار الرجل الأوروبي الأبيض للشعوب الأخرى، الذي تأسس على قاعدة "تنوير" تلك الشعوب ونقلها إلى مستوى الحضارة الأوروبية،وكل نواتج التراتبية الحضارية، مثل"المركزية الأوروبية" هي في الواقع محاضن للعنصرية المقيتة".[2]

وفي رأي إ.سعيد، لم يفلت من هذه الرؤية الامبريالية/الاستشراقية، أعتى العقول الفسلفية الغربية وأقواها، يصدق هذا على المفكر الاستشراقي أرنست رينان، الذي جذر منحى التعالي في تربة اللغة، بحيث اعتبر أن:"اللغات تتفق مع "الكائنات الطبيعية" أو تناظرها بصورة ما، فإنه يعمل في كل موقع آخر على إثبات أن اللغات الشرقية، لغات غير عضوية، توقف نموها وتحجرت تماما، وأنها عاجزة عن تجديد ذاتها، بعبارة أخرى يعمل على إثبات أن اللغة السامية ليست لغة حية".[3]

---

[1]ادوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ص 80.

* التشديد من عندنا.

[2]شيلي واليا، صدام ما بعد الحداثة، ادوارد سعيد وتدوين التاريخ، تر عفاف عبد المعطي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2006، ص 34.

[3]ادوارد سعيد، الاستشراق، ص، ص، 241، 242.

ينسحب هذا الحكم على الفيلسوف الألماني الكبير هيغل، إذ من:"المثير حقاً أن هيغل يقدم حضارة الساكن الأصلي هذه بأنها (ما تزال) طبيعية تماماً ومن ثم أنها ينبغي أن تنهار عند أول تماس لها مع الروح الأوروبي... ويقول "هيغل":"فيم يتعلق بالجنس البشري، فإنه لم يبق منذ الآن غير قليل من الأمريكيين الأوائل، حوالي سبعة ملايين قد تم القضاء عليهم. إن سكان جزر الهند الغربية قد **أفلوا**، وبعامة إن العالم الأمريكي بتمامه قد انقرض تحت الوطأة القاهرة للأوروبيين [...] إن هذه الشعوب ذات **البنية الضعيفة** قد تداعت للانقراض عند التماس مع شعوب أكثر تحضرا، وأكثر ثقافة". إن القضاء على سبعة ملايين بشر لا يغير من الحياة الاتيقية للروح المطلق شيئاً، واللافت للنظر هو أن هيغل يسجل هذا الانهيار الحضاري وهذا الانقراض القومي بوصفه حدثاً تأملياً في فلسفة التاريخ وليس مشكلا أخلاقيا".[1]

وعلى ذات المنوال السردي الامبريالي، تورطت الكثير من المباحث المعرفية في خطاب الاستشراق بنوعيه السافر والساخر، المحكوم بقصدية سلطوية واستغلالية صارخة، مثل **الفرينولوجيا***، الجغرافيا التكوينية، العلوم الاجتماعية، والإنسانية، السرديات الأدبية من رواية وقصة وشعر، فقد تمظهرت في رواية ردنيالديفو "روبنسون كروزو"، وجوزافكونراد في "قلب الظلام"، ورواية جين أوستن"روضة مانسفيلد"، كامو في "الطاعون"، مما دفع إ.سعيد إلى اعتبار السرد الروائي منتوج ثقافي:"يساهم في تكريس وعقلنة الفعل الامبريالي بطرق مختلفة. فمثل هذا السرد، في نظره، يشجع القارئ على تقبل الواقع الاستعماري، كمعطى طبيعي، أو حتى ضروري خاصة عندما يصور المستعمَر أو الآخر كمخلوق بدائي أو همجي. قد يكون من آكلي لحوم البشر".[2]

ويؤكد إ.سعيد كذلك أن جميع الدراسات النقدية الحداثية، اعتمادا على أدواتها الابستيمولوجية، قد عرت:"الأشياء من السرية التي تلفعها، من مثل التاريخانية الجديدة والتقويضية والماركسية، قد تحاشت الأفق السياسي الرئيسي، بل أود أن أقول: المحتم المشكل

---

[1] فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، في تنوير الإنسان الأخير، ص ص 79، 80.

* علم فراسة الجمجمة.

[2] محمد الكوش، ادوارد سعيد وإشكالية العلاقة بين الفكر الاستشراقي والمشروع الامبريالي:الخطاب الأمريكي نموذجا.، مجلة بصمات02، ط2، 2007، المطبعة : دار القرويين، المغرب، ص 76.

للثقافة الغربية الحديثة، وهو الامبريالية... لقد عزز وآزر هذا التحاشي الضخم <عمليات> احتواء وإقصاء شرائعية، فأنت تشمل أمثال روسو، ونيتشه، و وورد زورث، وديكنز، وفلوبير، ومن إليهم... لكنك في الوقت نفسه تقصي علاقاتهم بعمل الإمبراطورية المديد، المعقد، المخدد".[1]

ويتحول الخطاب الاستشراقي/الامبريالي إلى مراقب خفي لكل النصوصالفلسفية الغربية،بحيث تمارسه بصورة لاواعية في الكثير من الأحيان، فيغلب عليها طابع الرقابة الذاتية، بدعوى الآخر البعيد عن تفكر براديغم الذات المتعالي، أو بحجة عدم أحقية هذا الغربي الأنطولوجية، لأنه:"ثمة اشتمالية، ثمة احتوائية، ثمة حكم مباشر، ثمة إرغام وقسر... لكن ليس ثمة إقرار –إلا في النادر- بأن الشعوب المستعمرة ينبغي أن **يُسمع منها***، وأن يعرف ما لديها من أفكار".[2] وبقي هذا المنزع الخفي ثاوياً في متن هذا الخطاب ينتهج جميع أساليب الرقابة والتوجيه والهيمنة، والتحكم في اشتغالاته، وقد كشف إ.سعيد عن ذلك في نصوص مدرسة فرانكفورت النقدية، فـ:"بالرغم من تبصراتها النفاذة المخُصِبة في العلاقات بين السيطرة والمجتمع الحديث والفرص المتاحة للخلاص عبر الفن من حيث هو تنفيذ، صامتة صمتا مذهلا عن النظرية العرقية والمقاومة ضد الامبريالية، والممارسة المعارضة الضدية في الإمبراطورية. وليكلا يُؤول ذلك الصمت كسهو غير مقصود، فها هو ذا المنظر الرئيسي لمدرسة فرانكفورت اليوم، يورغنهابرماس، يوضح في مقابلة (كانت قد نُشرت أصلا في مجلة اليسار الجديد) أن الصمت امتناع مقصود: كلا، يقول هابرماس، ليس لدينا ما نقوله لـ "الصراعات ضد الامبريالية وضد الرأسمالية في العالم الثالث" حتى كنت، كما يضيف قائلا "أعي حقيقة أن هذه وجهة نظر ضيقة في تمركزها الأوروبي"".[3]

طبقاً لقراءة إ.سعيد، فإن الخطاب الاستشراقي/الامبريالي يمكن أن يقع في بعض الهفوات المعرفية، التي تترجم محتواه التسلطي الدفين، وتطفو على سطحه التحليلي،

---

[1] ادوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، المصدر نفسه، ص 126.

* التشديد من عندنا.

[2] ادوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ص 118.

[3] ادوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ص 333.

فتتخذ أحيانا شكل الصمت الذي انخرط فيه فوكو، بعد أحداث ثورة 1968، ونجاح الثورة الإيرانية، ويمكن أن تتخارج في صورة قول يرتقي إلى مرتبة الاعتراف، حيث:"نجد شخصية كبيرة من مستوى ليفي-ستراوش قد أعربت عن القلق، وإن لم يكن الندم عن كون الامبريالية إحدى النواحي الفكرية المُكونِنة للدراسة العرقية الميدانية".[1] إلا أنها مجرد مسارات قولية لا يمكن أن تغير من مجرى التيار الامبريالي الجارف، وعلى أساس ذلك يدافع إ. سعيد عن ضرورة البحث عن:"نموذج غير قسري للعلوم البشرية، لأن الاستشراق (كظاهرة) برأيي، حمل فعلياً في طياته كل عناصر الإكراه السيئة النية،(وان كانت خفية) لهيمنة إرادة على أخرى. بالطبع، كتاب "الثقافة والامبريالية" مبني أساساً على أمر عد اختزاله مستحيلا، ألا وهو الرغبة في الهيمنة على الآخرين".[2]

غير أن الرد على هذه الهيمنة، لا ينبني على استشراق مقلوب، الذي سمي عند البعض بالاستغراب*، لأنها صورة مغشوشة، تعبر عن كوجيطو شرقي مجروح، يحمل ندوب من قام بالتسلط عليه استعمارياً، ومن استنزفه اقتصاديا، ومن أقعده أنطولوجيا، وإنما يكون **بالمقاومة العقلانية**.

2. الامبريالية والمقاومة المعقلنة:

يقر إ.سعيد بدءاً، عسر التحرر من أسر الفضاء الامبريالي الغربي السميك من جهة تكونه التاريخي، ومن ناحية انغراسه في التفكر الغربي، فهو خطاب متماسك على مستوى النص الداخلي، لم تزحزحه الأحداث التاريخية، ولن تغير أي شيء في مجراه القار، ومثالنا هنا مؤتمر باندونغ (1955)، حيث حصل الشرق بجميع دوله على:"استقلاله من الإمبراطوريات الغربية وبدأ يواجه تشكيلا جديدا من الدول الامبريالية وهي الولايات

---

[1] ادوارد سعيد، تغطية الإسلام، كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربي في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم،تر: سميرة نعيم خوري، دار الآداب، لبنان، ط 1، 2011، ص 244.

[2] ادوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، تر، نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، ط1، 2008، ص 211.

* المخصوص بالحديث هنا هو المفكر العربي حسن حنفي.

المتحدة والاتحاد السوفياتي. ولما عجز الاستشراق عن التعرف على "**شرقه**"* في العالم الثالث الجديد، أصبح يواجه شرقاً يتحداه، وشرقاً مدججاً بالسلاح السياسي".[1]

لكنه، أي الاستشراق، بقي ملتزماً بمبادئه الأساسية، إذ ما لبث أن أنكر:"تأثير الاستعمار، والظروف الدنيوية، والتطور التاريخي، فكانت في نظر المستشرقين لا تزيد عن "ذباب"كما يقول شكسبير "تقتله الصبية لهواً ولعباً"".[2] واستمر في تدعيم تصوراته وخطابه الامبريالي من خلال إقصاء أي ممارسة تخرج عن رؤيته، أو يشعر حدسياً أنها نوتة موسيقية لا تتناغم نهائياً مع سيمفونيته التوليتارية.

بهذه اليقظة الخطابية أي بمقدرتها التطهيرية العالية، يكون إ.سعيد قدام مَهمة عويصة، تتمثل في القطع أولا مع رؤية ميشال فوكو للخطاب، كونه تمشي التزم به سعيد على مستوى تحليل الخطاب الامبريالي، بحسبان العلاقة القوية المفترضة بين المعرفة والسلطة، لأن القطع البنائي معه هو خطوة لازمة للتحرر من أسر هذه الرؤية، ومن عقابيلها، مكتشفا أن فوكو، بالرغم من نفاذ بصيرته الفلسفية، إلا أنه اعتبر الفرد الجزئي أو الذري مجرد:"محلولا في فيزيائيات صغرى تتقدم تقدما محتوما لا أمل في مقاومته".[3] واجتهد فوكو في:"تحليل خطابات القوة والمعرفة التي تعمل على فضح صيغ التوليتارية وأنظمة الاستبداد، وأشكال عملها في الفكر والمؤسسات، **لكن ذلك لا يقود إلى أية مقاومة***، و لا يحفز على وضع برنامج عمل. وهذا هو **الفرق الحاسم** بين تفكر فوكو وادوارد

---

[1]ادوارد سعيد، الاستشراق، ص 186.

[2]ادوارد سعيد، الاستشراق، ص 187.

[3]ادوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ص 332.

سعيد الذي يشدد على **مفهوم المقاومة** وعلاقة النصوص بشروطها المكانية-الزمانية".[1]

نكتشف سويا مع إ.سعيد أن النص الفوكوي بعيد كل البعد عن فكرة مقاومة السلطة، من داخل النص المعرفي، أو إمكانية الحديث عن تيار معارض يستعمل الثقافة أو المعرفة بمختلف تشكلاتها كأداة في وجه السلطة القائمة، بغية تفعيل خطاب مضاد لما هو سائد في المجتمع، والذي يستند إلى رؤى امبريالية تشكل جوهريا براديغم الأنا الغربي المتعالي. مما جعل من فوكو– حسب سعيد– أسير رؤيته المعرفية التي سلم نفسه لها طواعية ودون أية مقاومة، فقد تفادى التطرق إلى:"النزعة الاقتصادية الماركسية، انساق إلى طمس دور الطبقات،...ودور العصيان، والثورة في المجتمعات التي يبحثها".[2] وعلى أساسها بانت أن الأزمة التي وقع فيها فوكو، هي أنه وضع نفسه داخل دائرة معرفية مغلقةلم يستطع الخروج منها بحيث:"سجن فوكو نفسه فيها وسجن آخرين معه".[3]

وإ.سعيد كان واعيا بأن عليه أن يكون بالضرورة خارج هذه الدائرة المغلقة، لأنه أراد أن يسلك مسلكاً غير فوكوياً، من خلال تجذير فكرة **المقاومة المعقلنة**في تضاعيف النص الفلسفي، والعمل على غرس البعد النضالي في رؤيته للثقافة والمثقف معاً، باعتبار أن:"الثقافة تمثل أداة للمقاومة في مواجهة محاولات

---

[1]فخري صالح، ضمن كتاب جماعي، ادواردسعيد طائر القدس المهاجر، ص 313.

* التشديد من عندنا.

[2]ادوارد سعيد،العالم والنص والناقد، ص 298.

[3]ادوارد سعيد،العالم والنص والناقد، ص 299.

الطمس، والإزالة والإقصاء. إن المقاومة شكل من أشكال الذاكرة في مقابل النسيان، وبهذا الفهم، أعتقد أن الثقافة تصبح على قدر كبير من الأهمية".[1]

إنها أهمية تزداد مع مرور الوقت، عندنا يبدأ المثقف ما بعد الكولينيالي في مواجهة العنف الرمزي للامبريالية، وفضح نصوصها المتواطئة مع نزعة الهيمنة، سواء أكان فضحا تاريخياً يدفعنا إلى الكشف عن الوجه القبيح من فلسفتها، وهنا ينصحنا إ. سعيد بأن ننتبه إلى مسألة مهمة غفل عنها أهل التفلسف، خاصة عندما:"يجرون مناقشاتهم للفيلسوف لوك، ابن القرن التاسع عشر، وهيوم ابن القرن الثامن عشر، وللمذهب الامبريقيأي التجريبي دون أن يأخذوا في اعتبارهم على الإطلاق وجود رابطة سافرة في كتابات هؤلاء الكتاب الكلاسيكين بين مذاهبهم "الفلسفية" والنظرية العنصرية وتبريرات ممارسة الرق أو حجج الدفاع عن الاستغلال الاستعماري".[2] أو فضحاً ينتهج أسلوب المقاومة المعقلنة، الذي يتنزل مباشرة في ممارسات المثقف النقدي، الأنسني الدنيوي، التاريخي، والعضوي بلغة الفيلسوف الايطالي أنطونيو غرامشي، ويصبح بالتالي حامل للصفات التالية*:

- عدم اختزاله أي المثقف، في صورة محددة ونمطية، مثل: المهنة، الفرد الكفء، الانتماء إلى طبقة...الخ.
- التمتع بموهبة تسعفه في حمل رسالة، تمثيل وجهة نظر، التعبير عن موقف، فلسفة، رأي...الخ.

---

[1]ادوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، حاوره دايفيدبارسيميان، تر: علاء الدينابو ذينة، دار الآداب، ط1، بالعربية، 2006،ص 143.

[2]ادوارد سعيد، الاستشراق، ص ص 59، 60.

*صفات تحدث عنها إ.سعيد في كتابه المثقف والسلطة، بتصرف من عندي، ص، ص، 43، 44.

- الجرأة على طرح أسئلة محرجة ومربكة، بغية تحريك الجمود الفكري للعامة، وتجنب ظاهرة التملق الخادع.
- التميز بصفة التمرد على الحكومات والشركات التي تعمل على استقطابه، واحتوائه ماديا واجتماعياً.
- تمثيل الأشخاص والقضاياً التي ما تكون عادة مصيرها النسيان أو التجاهل والإخفاء، أي البحث عن المهمش وتمثيله.
- الالتزام بالمبادئ الكونية العامة (الحرية، العدل، الحق...).

وبصورة إجمالية، يمكن القول مع إ.سعيد أن مهمة المثقف ما بعد الكولينيالي، لا تكمن في مسايرة الإبداعات الغربية مهما كان مأتاها، والتماهي معها في أطروحاتها المابعد الحداثية، وإنما هي التحديق في الزمن التاريخي الذي يمر به الوطن العربي، والإحساس بمقتضياته المعرفية، فـ"**القراءة الطباقية**" التي اقترحها مفكرنا، هي التي تجعل من زمننا التاريخي مختلفاً عن الزمن التاريخي الغربي، بالرغم من وحدة التوجه الكوني، بمعنى أن يكون:"الغرض من النشاط الفكري هو نصر قضية الحرية والمعرفة الإنسانية، واعتقد أن هذه المقولة لا تزال صادقة على الرغم من التهمة التي سمعناها مراراً والتي تزعم بأن الأقاصيص الكبرى "**للتحرر والتنوير***" لم تعد متداولة على الأقل في عصر ما بعد الحداثة، والعبارة المقتطفة هي التي استعملها الفيلسوف الفرنسي ليوتار في الإشارة إلى الطموحات البطولية المرتبطة بالعصر الحديث وهو يقصد "الحداثة" الذي انقضى وباد".[1]

بناءً على رؤية إ.سعيد للثقافة المناضلة والمعقلنة، ينظر الدكتور فتحي المسكيني إلى نصه، بحسبانه نصا اتيقياً، إذ يجب:"علينا الاعتراف بأن تأسيس

[1]ادوارد سعيد، المثقف والسلطة، ص 52.

الحقيقة على التحدي هو موقف اتيقي وليس إجراء برهانياً. إنه موقف حيوي متعمد وليس واجباً مهنياً، لذلك فإن اختيار إ. سعيد لعبارة التحدي لم يكن صدفة، بل انبثق عن تصور فلسفي محدد للأثر النظري أو النقدي بوصفه موقفاً حيوياً، ولأنه منبثق عن هكذا تصور حيوي جاء كتاب **الاستشراق*** نصاً خطيرا ومستفزا ومناضلا".[1] خطورة نابعة من كون إ.سعيد تعامل مع المنطق الخطابي الاستشراقي من مفترض معرفي قوامه أن الغرب عاجز عن:"الربط بين وجهي الحداثة، وجهها المشرق من شعر وفلسفة ورواية، ووجهها المظلم مثل الرق والاضطهاد والاستعمار".[2]

واستفزازاً أيضاً، يحفز فينا الرغبة في معاودة تقديم قراءة جديدة وطريفة للثقافة الفلسفية الغربية، من جهة كونها تخضع لهيمنة جوانية تسكن في عمقها، هي هيمنة براديغم الذات المتعالية، التي هي منغرسة في نرجسية مشبعة بأفاويق القول الغربي. تجد مبررها الخارجي في الاستشراق، متكئة على:"أن الاستشراق هو هيمنة من نوع آخر أكثر خطورة: إنه منع الآخر من أن يبني الموقع الثقافي القادر على ترجمة غيريته في ضرب من موجب الانتماء إلى نفسه".[3]

بمثل هذا التمشي، نصل إلى نقطة مفصلية في إطار التحاور مع أزمة براديغم الذات الغربي، بحكم أن:"الاستشراق هو البعد المنسي من ماهية الفلسفة الغربية. وأن ذلك هو ما كشف عنه إ.سعيد واشتغل عليه كمبحث خاص وعبر عنه من خلال قوله:"هو لا يتعلق بالشرق بقدر ما يتعلق بعالمنا"نحن"".[4] وبه ينخرط إ.سعيد –وفق

---

[1]فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، ص 121.

[2]فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، ص 137.

* التشديد من عندنا.

[3]فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، ص 138.

[4]فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، ص 131.

قراءة فتحي المسكيني– في إعادة تخريج مدلول الآخر الغربي، بحسبانه أحد نتائج أزمة براديغم الذات، فهذا البراديغم نثر أمراضه على فضائه أولاً وعلى فضاء الشرقي ثانياً، أي أنه لم يهيمن على الآخر غير الغربي فقط، بل هيمن على ذاته وتعامل معها أداتياً، وأسقطها في شراك التصور البراغماتي الفج والمقيت.

من أجل ذلك، أصبح نص الاستشراق نصاً مقاتلاً من أجل تخليص الغربي من تصوراته الاستيهامية للآخر الشرقي خاصة، ومن نرجسيته الخادعة، وبهذا الانخراط المعرفي:"يصبح كتاب الاستشراق جزءً أصيلا من النقاش المعاصر حول أزمة براديغم الذات، وهو أصيل لأنه نجح في استثمار تلك الأزمة في إعادة تخريج ماهية "الآخر" بوصفه لا يعدو أن يكون هو أيضاً من نتائج براديغم الذات الحديث".[1]

نحن الآن أمام وثبة معرفية خطيرة، تؤدي بنا إلى الخروج من الفضاء الامبريالي، فهو أفقنا التاريخي الراهن، وإنما أن نمشي معه وبرفقته بغية تفعيل مكتسبات الآخر وفضائله، والتأكد من وجود فرق معرفي وأنطولوجي بين الفضاء الامبريالي الذي تحدث عنه إ.سعيد، والفضاء الإمبراطوري الجديد الذي تطرق إليه فتحي المسكيني، بمعنى أن الذات البشرية في مطلقها، مُلزمة بالعبور من براديغم الامبريالية إلى براديغم الإمبراطورية، لأن:"الفضاء الامبريالي لا يستوفي الفضاء الإمبراطوري، فالأول هو نموذج وعي الغرب "بذاته" في حين أن الثاني هو مساحة وعي أكثر تعقداً لأنها تضم أيضا وعي غير الغربيين بأنفسهم بما هم "الآخرون" ومن ثم أن الإمبراطورية هي واقعة أو عصر أكثر شمولاً وأكثر تعقداً من خطة الإمبراطورية".[2] غير أنه عبور يحمل معه دوما يقظة المقاومة، مقاومة الذات

---

[1] فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، ص 134.

[2] فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، ص 143.

الغربية لنفسها، التي أنكرت على الشرق حقه في إنجاز الاستقلال المعرفي، فهو صمت مقصود:"من فرط افتراضه أن الآخر غير مؤهل انطولوجيا للوقوف ضده"،[1] ومقاومة الشرقي لنفسه، خوفاً من السقوط في عقابيل الامبريالية، ومواجهة الصور الزائفة التي يكونها الغربي عنا، وفضح مسوغاتها غير الإنسانية.

خاتمة:

بإمكاننا أن نتحدث عن متابعة استقرائية عالية عند إ.سعيد للتحول الامبريالي في الفكر الغربي، بصورة اجتهد فيها على إبراز الخطاب الاستشراقي باعتباره خطابا يستغل المعرفة المتناثرة في قطاعات معرفية متعددة، لتحقيق مآربه السلطوية التي يبتغي منها الهيمنة على الآخر، خاصة الشرقي، وهو تحول لا يمكن رصده إلا بالاتكاء على منظومة معرفية غليظة في قولها ومفرداتها التحليلية، وقد كان إ.سعيد بالنسبة لنا، عونا معرفيا ورفيقاً أنطولوجياً في متابعة هدا التحول، والوقوف على منعطفاته المتنوعة، وصولا إلى : **منعطف المقاومةعبر الثقافة.** بالإضافة إلى كون التحول صوب الأفق الإمبراطوري حتمية ثقافية، كما طرحها فتحي المسكيني، تزيد في رغبة البشر في التحرر من براديغم الهيمنة الغربي، والذي فيه تساوى الشرقي مع الغربي.

إنها مقاومة تمنحنا شرف الوجود الحقيقي الصادق مع ذاته، والملتزم مع الآخر المختلف عنا معرفيا وأنطولوجيا وعقديا، التزام يصل إلى حد البحث عن سبل التقاسم الكوني، دون أن يكون ذلك إعفاءً من مسؤوليتنا التاريخية أمام ذاتنا في التخلص من رؤية استشراقية مزيفة نعلق عليها مآزقنا، أو رؤية ذاتية نرجسية تجرنا جراً إلى السقوط في منزع التعالي على الآخر، وبذلك لا يمكن لنا أن نحدث تجاوزا في خطاب الاستشراق على المدى التاريخي القريب.

[1] فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، ص 136.